قراءة دلالية بمنطق تحليل الخطاب
لحروف المعاني في سورة الانشراح

المدرس الدكتور
مديحة خضير السلامي
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

قراءة دلالية بمنطق تحليل الخطاب لحروف المعاني في سورة الانشراح

المدرس الدكتور
مديحة خضير السلامي
جامعة الكوفة ـ كلية الآداب

المقدمة:ـ

يحتل الخطاب القرآني المكانة المثلى والموقع الأسمى من بين مراتب النصوص الخطابية كافة سواء كان ذلك على منحى النصوص الإلهية السابقة عليه أم على مسار إبداعات النتاجات البشرية مما هي خاضعة معيارياً لقابلية الخطأ والصواب؛ ذلك بأن لطبيعة التعبير القرآني سمة خصوصية تباين جميع ما دوّن سواه ، ولا يعلق هذا بما يستودع هذا الكتاب من مضامين تعجز البشر عن مجاراتها أو التوغل عمقاً للعودة بما يناغمها ، أو في أقل إمكان إعمال الذهن وصولاً إلى دواعي ورودها ، ليس هذا هو المحرك الأساس فحسب ؛ لأن المحتوى المقدس لا تنزوي فيه هوية الإعجاز وروعة التميز وحدها ،بل إن للهيأة المعمارية فيما يخص البناء التركيبي لنسج العبارات ولمهارة الإبداع الاستعمالي في تخير اللفظ المنتقى الذي ينساب انسجاماً مع السياق العام تارة ، والغاية الموضوعية تارة أخرى ، والإعجاز الأسلوبي تارة ثالثة . ولحسن الظفر بالوعاء الصياغي في حدود تشكل المفردة العربية مما يضفي دلالة متكاملة الأوجه على الموضوع تضافراً وحيثية البناء التنسيقي (التركيب الدلالي) والمادة الأصل (المعنى المعجمي) أو المادة المنتجة بفعل القرينة ،هذه الوجهات اللغوية كلها لها إسهاماتها الوافرة وعلائقها المتينة بمفهوم الإعجاز ، بل لا نجانب الصواب أو ندخل في نطاق المبالغة إذا قلنا إنها تمثل المنعطف الأكبر لنمو الإعجاز الإبداعي في تصور من يتلقى النص فضلاً عن المحتوى الداخلي

وللبرهنة على هذا نرى أن العربي حينما يهتدي إلى النص القرآني قراءة أو سماعا فإنه يتلذذ أُنساً به منمازاً من حيث تملكه للذوق والتقبل الدلالي من غيره (الأعجمي) وإن كان كل منهم قد أسر القرآن قلبه واستحكم الإيمان على نفسه ، بيد أن الملاحظ لا يعدم الفارق الملازم بينهما من ناحية درجة تقبل النص وفهمه من حيث خطابه اللغوي.

ولهذا فإننا إذا أمهلنا أنفسنا فسحة من النظر المتأمل والعناية الواعية لقراءة نص قرآني ،لأدركنا سريعاً صحة ما آمنا به ابتداءً ، ولتوثيق هذا ومقاربة لربط النظرية بالتطبيق سنستل سورة من السور القصار من التعبير القرآني وهي سورة الانشراح لنقرأ حروفها قراءة دلالية واعية على وفق منطق تحليل الخطاب إذ سنعمل على توظيف مقررات الفكر النحوي وأسس الإبداع البلاغي ونتاجات البيان التفسيري ومعطيات المعنى المعجمي وكل ما أسهم في تحقيق ذلك من قرينة سياقية أو لمحة عقلية تستند الى منطق لغوي ثابت إذ كل ذلك سيوظف جملة في قراءة تلك الحروف في سورة الانشراح ، علّ ذلك يمكننا من الوقوف على جملة من الدلالات الإعجازية لها ليتسنى لنا الإجابة عن الكثير من التأمل والتساؤل تجاه هذه السورة .

قبل الخوض في قراءة النص لابد لنا من معرفة علة النزول للسورة المباركة؛ فربما يكون فيها ما يعين على إزاحة شيء من الغموض وإنارة مسالك الوصول إلى الدلالة ، فغالباً ما يكون لداعي هبوط النص شأن في تشكلاته البنائية و إسهام في الصيرورة الصياغية لدلالاته .

روي عن الطوسي إن البلخي قال معللاً نزول سورة الانشراح : ((كان النبي صلى الله عليه وسلم ضاق صدره بمغاضبة الجن والإنس له فاتاه الله من آياته ووعده ما اتسع قلبه لكل ما حملّه الله وأمره به))[1]، من هذه الرواية نلمس أن الغاية من النزول هي تطمين الرسول ﷺ وإذهاب الغم عنه بتعداد

نعم الله تعالى عليه ليؤكد له استحالة تخليه عنه ، فهي من السور المكية القصار المشحونة بدلالات المواساة والمؤازرة ، وهي شديدة التكثيف صياغياً لكنها واسعة الأفق دلالياً.

فما أن نشرع متأملين في الآيات الكريمات حتى نشهد بوضوح تصدّر أسلوب الاستفهام ممثلا ركيزة افتتاحية تملك من القوة الدلالية ما يكفي لشحذ الذهن للبحث عما يشفي التساؤل ؛ ذلك بأنّ مغزى الاستفهام في العربية أساسه طلب الفهم . والفهم صورة ذهنية تتعلق أحياناً بشخص أو شيء أو غيرهما ، وتتعلق أحياناً بنسبة أو حكم من الأحكام سواء كانت هذه النسبة قائمة على تعيين أم ظن وشك[٢]. فإذا ما أُريد الاستفهام عن النسبة سُلّط الاستفهام على المسند مباشرة أما إذا كان المراد السؤال عن المفرد فيكون هو أولى بالتقديم في هذه الحال ، ومثال الأول قولنا (أ جاء محمد؟) فالاستفهام هنا عن تحقق النسبة أو عدمها ، ويتوقف ذلك على الجواب. ومثال الثاني قولنا :(أمحمد جاء؟) فهنا المجيء متحقق سلفاً أي إن النسبة في الفعل واقعة بيد أن مظنة الإبهام هو القادم أي المفرد فوقع السؤال عنه .

أما فيما يتعلق بالسورة المباركة فقد استعمل التعبير القرآني في الآية الأولى الهمزة أداة استفهامية وذلك لما تنماز به هذه الأداة من مجيئها للاستفهام عن المفرد وعن النسبة ، فهي عند النحويين أم الباب. فضلاً عن استعمالها للتعبير عن معانٍ أخرى لا تقوم على أساس طلب الفهم كاستعمالها للتقرير ((وهو إثبات المستفهم عنه))[٣] من دون الحاجة إلى معرفة الجواب.وفي الآية الأولى يبدأ المتلقي بالبحث عن المستفهم عنه فيتجاوز أداة الاستفهام ليفاجأ بأسلوب آخر ملازم للهمزة في هذا التركيب متعلق بها هو أسلوب النفي ، حيث وليت الهمزة بـ (لم) النافية لتحقق لدى المتلقي إدراكا بأن الاستفهام لم يأت لطلب الفهم ؛ ذلك بأن اقتران الاستفهام بالنفي هو تقريرٌ لا استفهام . فهو سبحانه

لا يريد أن يسأل الرسول ﷺ عمّا إذا كان قد شرح صدره أم لا ، بل جاء بالاستفهام ليقرر الشرح لديه . وهنا نلحظ القدرة اللغوية لتشكلات الخطاب الإلهي ؛ إذ نجد أن كلا الأسلوبين الاستفهام والنفي لم يستعملا بدلالتيهما الحقيقيتين اللتين وضعا لهما أصلاً في التعبير العربي ، بل أبطل النص عمل كل منهما جامعاً إياهما بحيثية تركيبية خاصة تدلي بعكس دلالتيهما تماماً، فالاستفهام لم يعد استفهاماً بل تقرير موضوعي للجهة الموجه إليها الخطاب (الرسول ﷺ) ، والنفي انزاح عن عمله الأصلي وهو انقاض فعل الانشراح لصدر الرسول ﷺ بدخول أداة الاستفهام عليه فأحيل إلى إثبات يؤكد نسبة الانشراح بدليل العطف عليه بفعلين مثبتين ماضيين في الآيات التالية وهما (وضعنا) و (رفعنا) في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۞ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۞ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۞ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ ، فالواو ترد للمشاركة والجمع في الحكم الإعرابي والدلالي .

لكن السؤال المثار هنا هو هل يكتفي الناظر لهذا بالقول بأن هذا الاقتران بين هذين الأسلوبين جاء لدلالة التقرير فحسب؟ أو يمنح هذا الانزياح شيئا من التأمل والعناية لبسط القول في سبب وجود هاتين الأداتين حصراً دون غيرهما . ولماذا لم يأت التعبير على هيأة الإخبار المباشر إذا كان الغرض منه الإثبات أو الخبرية ؟ إذن ما الذي تبعثه هاتان الأداتان في الذهن من دلالات تفتح بهما آفاقاً للنص ؟ وما أثرهما في توجيه الدلالة العامة للآيات ؟.

إن تسييق الخبر بوساطة الإنشاء أقوى من التعبير بأسلوب الخبر نفسه ،ذلك بأن فائدة الخبر بوصفه خبراً هي أن السامع إذا سمعه عرف الحكم الذي يتضمنه بعد أن كان جاهلاً به ، ((فإذا قصد المتكلم إلى هذه الفائدة وهي إعلام السامع بحكم خبره قيل : إن الغرض من الخبر هو فائدة الخبر))[٤] ، ولا يغيب عنا أن المخاطَب عند تلقي الخبر لا يخلو من أحد ثلاثة أمور: أما أن

يكون خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه الخبر ، وأما أن يكون متردداً في الحكم طالباً الوصول إلى معرفته والوقوف على حقيقته ، وأما معتقداً ما يخالفه . على حين ان الإنشاء أسلوب لا يستلزم أيا من هذا. والرسول ﷺ يعلم أن الله سبحانه وتعالى قد شرح صدره لحمل تلك الرسالة ، فهو لم يكن خالي الذهن من الخبر ولا متردداً ولا منكراً ؛ لذا جيء بأسلوب الإنشاء لتقوية ما في نفس المصطفى ﷺ وتوثيق ذلك في داخله توثيقاً تاماً على حين تستوقفنا في النص لفتة لطيفة وهي استعمال (لم) بدلاً من (ما) ويبدو أن هذا ((من خصوصيات الاستعمال القرآني انه لم يستعمل الاستفهام التقريري بـ (ما) قط ،بل استعمل (لم)))[٥] على الرغم من أن (ما) آكد من (لم) ، يؤكد هذا قول سيبويه : ((وإذا قال لقد فعل فإن نفيه ما قد فعل لأنه كأنه قال والله لقد فعل فقال والله ما فعل))[٦] . فما دام النفي بـ(ما) آكد وأوثق لدى المتلقي فلم أعاضه تعالى بـ (لم) ؟.

إن استعمال (لم) جاء لجملة دواعٍ أولها أن الماضي المنفي بـ (ما) يكون في الغالب لنفي الماضي القريب من الحال ،على حين أن لم غير مقيدة بأزمنة المضي ، فقد انحرف زمن المضارع دلالياً بدخول (لم) عليه فتغيرت دلالته من الدلالة على المضارع إلى الدلالة على الماضي بدليل العطف عليه بفعلين ماضيين كما أسلفنا . وإن دخول (ما) على الماضي يدل على أن الحدث لم يحصل في الماضي على تطاول المدة واستمرارها ، ذلك بأن الماضي يدل على أن الأمر قد انقضى، وأما المضارع فيدل على التكرار والتجدد والتطاول فإذا دخلت (ما) على الماضي دل على انتفاء الحدث بصيغة المضي ، وإذا دخلت (لم) على المضارع دل على انتفاء الحدث بصيغة المضي ولكن على سبيل التجدد والاستمرار[٧] حتى الوقت الحاضر .

ومن هنا يمكن القول باطمئنان بأن التقرير (الإثبات) الحاصل بالنفي

المستفهم عنه بـ (الهمزة) و (لم) و(الفعل المضارع) جاء على سبيل التجدد والاستمرار دون التقيد بزمن محدد ، ولو جاء بـ(ما) لما أوجدت هذه الدلالة ولارتبط النفي بالزمن القريب الذي توحي به (ما) ، وبهذا يكون انشراح الصدر للرسول ﷺ صفة دائمة تقيض له دافعاً نفسياً لمواصلة الدرب ومجابهة الكفر وأهله، ذلك بأن من كان صدره منشرحاً على الدوام تكون له القابلية على احتواء جميع أضغان المناوئين من جهة فلا تضعفه ، ويكون من جهة أخرى في كامل قدرته القيادية والسيطرة الذاتية فلا يدع مجالاً لعوامل الانزعاج والانقباضات النفسية بالهيمنة عليه والإخلال بمسيرته النضالية لنشر العقيدة الإسلامية دون تردد أو تحذر من شيء وهذا كله منتج من تضافر أسلوبي الاستفهام والنفي بـ (لم) معاً .

لقد أسلفنا في الذكر أن الهمزة تدل على الاستفهام أصالة ؛ذلك لإمكانية الاستفهام بها عن المفرد تارة وعن النسبة تارة أخرى ، على حين أن الآية الكريمة قد وظفت الهمزة بحيثية منحت النص دلالة ازدواجية في وقت واحد ، فنجدها مساقة ـ بعد إبعادها عن مهمتها الاستفهامية ـ لإثبات وتقرير نسبة فعل الانشراح ، والفاعل (الله تعالى) على حدٍّ سواء ، ويسند هذا ورود الفعل (نشرح) على صيغة (نفعل) التي يستتر فاعلها فيها وجوباً ، فهو متلبس بها، فيكون التقرير مسلطاً على نسبة الحدث والفاعل (المسند إليه) معاً. ولو كان الكلام على هيأة (ألم يشرح الله لك صدرك) لكان التقرير منصباً على إثبات وجود الانشراح فحسب ، أي وجود الفعل دون الفاعل ؛لوجود فاصل بين الفاعل وأسلوب التقرير وهو الفعل ، ثم إن مجيء الفعل على صيغة المتكلم الجمعي لها خصوصية أخرى هي تعظيم الشأن المساق الفعل لأجله، إذ إن الاستقراء التتبعي لنصوص التعبير القرآني يؤكد إن الفعل إذا سيق على هيأة الجمع فيما يخص الفاعل فإن الموضع لابد من أن ينطوي على دلالة

الأهمية والتهويل والعناية الفائقة في الوقت ذاته ، وهذا أنسب لمقام الرسول ﷺ ثم إن صيغة المتكلم فيها من التقرب والمودة في الآية ما لا نلمسه باستعمال صيغة أخرى ،فكلما قرأنا النص شعرنا بأن الحديث موجه إليه ﷺ الساعة مما يوحي بشدة قربه سبحانه من رسوله ﷺ وهذا يتناغم والدلالة العامة للسورة بأسرها.

بعد أن خلص السياق من تقرير الحدث والفاعل على سبيل التجدد والاستمرار الذي لم يتوقف عند الآية الأولى فحسب بل شمل جميع الآيات الواردة بعدها بدلالة حرف العطف (الواو) الذي يفيد الإشراك في التقرير . نلحظ في جميع سياقات هذه الآيات سمة مشتركة إزاء سمة (التقرير) هي وجود حروف المعاني المتصلة بكاف الخطاب ،وهي لك وعنك في قوله تعالى : ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وقوله : ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ وقوله : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ في الوقت الذي يكون بالإمكان أن تستوفي هذه الجمل أركانها برفع (لك) و(عنك) من السياق ، ومثل ذلك قوله تعالى ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾[٨] وقوله أيضا : ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾[٩]. فلِمَ جاء بالمتعلق في الآيات السابقة؟

نقول : إن لوجود هذه الحروف في هذا السياق دلالات ما كانت لتحدث برفعها فالمتعلق (لك) له أهمية دلالية كبرى في النص حيث تكتنز وتتكثف فيه أكثر من دلالة منها : دلالة التقريب من الله سبحانه حيث توحي بان هذا العمل قد أنجزه سبحانه لمكانتك العالية وقربك منه ؛ ذلك أن اللام المتصلة بكاف الخطاب المعبرة عن الرسول ﷺ تدل على الملكية إذ يذكر سيبويه أن معناها الملك والاستحقاق[١٠] . وبهذا تكون هذه الأعمال كلها من حقه ﷺ. وهذا يظهر شدة احتفائه سبحانه به أيضاً ، فكأن هذه الأمور هي خالصة له من دون غيره ، وبهذا تكتسب (اللام) دلالة التخصيص والتنصيص على

الرسول ﷺ وحده ، وقد تحمل اللام دلالة السببية ، فيكون المعنى (شرحنا لأجلك صدرك حتى لا تستاء) و (رفعنا لأجلك ذكرك لترضى) كما تقول لصاحبك (دعوت الله لك) أي دعوته لأجلك.

وفي النظير المقابل يكون (عنك) دلالة يقتضيها السياق أيضاً فوجودها قيد بياني أوضح إزاحة الوزر عنه ﷺ وبهذا تعد موجهاً لدلالة الفعل وضع ، فلو قال تعالى وضعنا وزرك من دون أن المتعلق لاحتمل الكلام تأويلاً آخر هو أنه وضع الوزر عليه أي أثبته ، وهذا خلاف المراد من وضعه عنه أي رفعه عنه؛ ذلك بأن (عن) عند استعمالها تفيد المجاوزة والابتعاد من الناحية الدلالية كقوله تعالى ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾[١١]، والوزر هو الحمل الثقيل . وبهذا نجد أن لهذه الحروف أثراً بالغاً في مجانسة دلالة الآيات الواردة فيها مع الدلالة العامة للسورة من جهة والتوجيه الدقيق لدلالة الآية نفسها الوارد فيها الحرف من جهة أخرى.

وعند إنعام النظر نجد أن تقييد كلمة (الوزر) بالصفة في الآية الثالثة قد أضفى على السياق دلالة تأكيدية ، إذ وصف (الوزر) بقوله ﴿الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الانشراح/ ٣. ومن البديهي أن لكلمة (الذي) دلالة إثرائية في السياق، يقول الجرجاني ((اعلم أن لك في (الذي) علماً كثيراً وأسراراً جمة وخفايا إذا بحثت عنها وتصورتها، اطلعت على فوائد تؤنس النفس وتثلج الصدر بما يفضي بك إليه من اليقين و يؤديه إليك من حسن التبيين والوجه في ذلك أن تتأمل عبارات لهم فيه :لِمَ وضع ؟. ولأي غرض اجتلب... إن (الذي) أُجتلب ليكون وصلة إلى وصف المعارف بالجمل كما اجتلب (ذو) ليتوصل به إلى الوصف بأسماء الأجناس))[١٢] ؛ لذا فغاية وصف الوزر بأنه ينقض الظهر لتبيينه عن غيره ،فيريد أن يصف ثقله وشدته ،فالجملة الواصفة هنا سيقت لإظهار معانٍ لا يمكن أن يتوصل إليها المتلقي مما لو اختزلت هذه

الجملة بكلمة ،وإذا ما فهمنا أن الجمل الواصفة لا تقع إلاّ بعد النكرات أدركنا سر وجود الاسم الموصول (الذي) إذ لا يمكن القيام بوصف المعرفة بالجملة من دون (الذي) فلا يصح أن تنعت المعرفة بالجملة ؛ ذلك بأن العلة تؤول في امتناع ذلك لمقتضى إجرائي يخص سلامة التراكيب اللغوية، إذ إن الجمل نكرات فلا يُنعت بها الاسم المعرفة لانتفاء المطابقة التي هي شرط لازم الوجود بين الصفة والموصوف، فهي خاصة من منظور النحاة بوصف النكرات لحدوث المطابقة؛ لذا يتوصل إلى وصف المعرفة تركيبا بـ (الذي) التي تفيد وتعضد دلالة التقرير في الوقت نفسه؛ لأنك ((لاتصل (الذي) إلاّ بجملة من الكلام قد سبق من السامع علم بها، أمر قد عرفه له))[١٣]، فالرسول يعلم أي نوع من الأحمال قد وضعه الله تعالى عنه، وهو الحمل الثقيل الذي أنقض ظهره وأتعبه ،بل هو أشد الأحمال؛ لذا احتاج إلى التقيد ليصرف الذهن عن غيره من الهموم الصغيرة، وليؤكد أنه إذا رفع عنه الحمل الثقيل فمن باب أولى أن يحمل عنه الأثقل ويكون سنده على الدوام .

وما يؤكد ذلك ورود الآيتين ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۞ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الانشراح/ ٥،٦) بعد آية رفع الوزر عنه ﷺ ، وجاءت هاتان الآيتان نتيجة حتمية يتوِّج بها سبحانه علانية ما ضمنه في الآيات السابقة عليهما وهي دلالة الاطمئنان وزوال الهم من صدر الرسول ﷺ ، فالمتأمل في الآيتين يقف على صدارتهما بـ (الفاء) المنطوية على دلالة التعليل ، ولكن ما الذي دعا إلى الابتداء بـ (الفاء) التعليلية دون أدوات التعليل الأخرى ؟ . يبدو أن الدافع لذلك أن الفاء التعليلية تفيد إزاء السببية الترتيب المعقب زيادة على المصاحبة ، جاء في كتاب سيبويه قوله : ((والفاء ضم الشيء إلى الشيء كما تفعل الواو ، غير أنها تجعل ذلك متبعا بعضه في اثر بعض))[١٤] ، وبهذا انضمت دلالة مصاحبة إلى الترتيب والعلّيّة في الآية، فالمراد هو تزامن وسرعة ورود النتيجة (اليسر) بعد

السبب العسر ، بل إنهما متصاحبان مع بعضهما بدلالة (مع) المؤكَّدة بـ (إنّ) ؛ لأنها توحي بمعنى المصاحبة في الزمان والمكان من حيث المعطى المعجمي لها حتى قيل بأنها ((اسم معناه الصحبة))[١٥] ، وهنا يرتبط السبب بالنتيجة وكأن اليسر جاء مصاحباً للعسر منذ بدايته ، وهذا يتناغم وحلول الفاء في الصدارة دون الواو ؛ لأنها ((توجب أن الثاني بعد الأول ، وان الأمر بينهما قريب))[١٦]، أو يكاد يكون متزامناً معه ،ويلفت نظرنا أن التوكيد بـ (أن) قد دخل مباشرة على دلالة المصاحبة المتمثلة بـ(مع) مما يعضد المعنى الذي ذهبنا إليه ، والمتمعن في هذا التركيب يدرك أنّه قد خرج عن مألوف النسج الإجرائي للتراكيب اللغوية ،فكان يسع القائل أن يقول : (إن اليسرَ مع العسرِ) بيد أن البناء التركيبي على الهيأة الواردة في الآية قد حقق دلالة لا نلمسها مع التركيب المثالي لدى النحاة الخاضع للقاعدة المقدسة من وجهة نظرهم ،ذلك بأن الغاية هي تسليط التوكيد على معية ومصاحبة اليسر للعسر،وليست الغاية تأكيد وجود العسر أصالة، فاليسر موجود ويأتي من دون شك، لكن لا يمكن لأحد أن يتكهن متى يأتي ، فلو ورد التركيب : (إن اليسر مع العسر) ؛ لاضمحلت دلالة المعية وأصبح التركيز منصبا على كلمة (اليسر) فحسب، على حين أن قوله ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ يجذب ذهن المتلقي تبادراً إلى أهمية وجوب وتأكيد مصاحبة اليسر للعسر ، ثم إن إعادة النظر مرة أخرى لهذا التركيب يكشف لنا عن أمر لا يقلّ أهمية عن المصاحبة ، بل يسعنا القول انه ينسجم تماماً مع دلالة المصاحبة أو الدلالة التطمينية للآية وهي أن تقديم الخبر إذا كان ظرفاً (مع العسر) لا يكون واجباً كما هو في الآية إلا بتنكير المبتدأ (يسرا) وان هذا التنكير منح النص دلالة كبرى وهي دلالة الإطلاق ، فكأنه يريد ماهية العسر بغض النظر عن أشكاله وطرائقه وحيثياته في الحياة ، ثم إن التنكير يفيد التكثير والشيوع والإبهام مما يزيد النص رصانة في توكيد معنى

تسكين نفس الرسول ﷺ وإشاعة السكينة في نفسه كشيوع اللفظ المطلق (يسرا) ونعتقد أن (أل) في كلمة (اليسر) عهدية لأن القارئ أي قارئ للنص سوف يقفز إلى ذهنه بقراءة هاتين الآيتين ـ العسر الذي يعاني منه هو دون غيره فيطمئن لوجود المعادل الموضوعي له وهو اليسر ـ بكثرته وشيوعه، وفي هذا توجيه نفسي عظيم منه سبحانه ليوحي للرسول ﷺ خاصة وللناس عامة بان العسر مهما كان شكله ومهما استمر ، فإن عملية الحد منه وتلافيه برفعه والقضاء عليه موجودة معه ، أو تابعة له بوقت قريب جداً ؛ فعلى الناس أن يصبروا ، فنجد فيها عظة وتوجه إلى الصبر وحسن الظن به تعالى لأن العسر إذا كان مقيداً بشيء ما ، فإن اليسر مطلق له شائع كثير متعدد الحيثيات وهذا من نعمته سبحانه ، وزيادة في توكيد مضمون تزامن اليسر مع العسر وتمكينه من قلب الرسول ﷺ. ومن هنا نلحظ أن الله تعالى قد استعمل أسلوب التوكيد بكيفيتين الأولى : أداتية حيث استعمل الفاء التقريبية التعقيبية، وإنّ التوكيدية ومع (الاستصحابية) . والثانية: تكرارية عن طريق إعادة التركيب برمته تارة أخرى وهو ما يعرف في العربية بالتوكيد اللفظي.

بعد أن تحقق اطمئنان الرسول ﷺ في الآية السابقة يطالعنا أسلوب جديد في قوله تعالى ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (الانشراح /٧) وهو أسلوب الشرط ، ولا يخفى ما يُحدِث هذا الأسلوب من انزياحات دلالية في الجمل ، أولها انه يحوّل الفعل إلى الاستقبال بعد أن كان ماضياً ، وقد ذهب النحاة إلى القول بأن القصد من مجيء الشرط ماضياً وإن كان معناه الاستقبال هو إنزال غير المتيقن منزلة المتيقن وغير الواقع منزلة الواقع ، يقول ابن جني: ((وكذلك قولهم إن قمتَ قمتُ ، فيجيء بلفظ الماضي والمعنى معنى المضارع ؛ وذلك أنه أراد الاحتياط للمعنى ، فجاء بمعنى المضارع المشكوك في وضعه بلفظ الماضي المقطوع بكونه ، حتى كأن هذا مذ وقع واستقر ؛ لا انه متوقع مترقب . وهذا

تفسير أبي علي عن أبي بكر وما أحسنه))[١٧] ؛ لذا ناسب معه في هذه الآية وجود إذا التي تكون للمقطوع حصوله ، فهي لا تدخل إلا على مضامين الجمل المتيقنة الحدوث للدلالة على أن فراغه ﷺ واقع لا محالة ؛ لذا لم يستعمل (إنْ) هنا لأن دلالتها ظنية ، يقول القزويني مفرقاً بين (إنْ) و(إذا) : ((أما (إنْ) و(إذا) فهما للشرط في الاستقبال ،لكنهما يفترقان في شيء واحد وهو أن الأصل في (إنْ) أن لا يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه كما تقول لصاحبك (إنْ تكرمني أكرمك) وأنت لا تقطع بأنه يكرمك والأصل في (إذا) أن يكون الشرط فيها مقطوعاً بوقوعه كما تقول : (إذا زالت الشمس آتيك) ؛ ولذلك كان الأمر النادر موقعاً لـ(إنْ) لأن النادر غير مقطوع في غالب الأمر))[١٨].

فمعنى الشرط أساساً أن يقع الشيء لوقوع غيره ،أي إن لم يقع الأول لم يقع الثاني ،لكن الوقوع في هذا السياق كائن لا محالة أو واجب دلالياً، وبهذا ينتفي الشرط فيه؛ إذ لا يمكن أن يبقى الرسول ﷺ مشغولا إلى ما لانهاية فلا بد له من الفراغ ؛ ذلك بأن فراغه ﷺ واقع لا محالة ؛ لذا يكون النصب واقعاً بالضرورة ، وهذا انزياح في دلالة التركيب الشرطي ،بيد أن ورود الفعل الماضي في سياق (إذا) لا يكون دائما على هذا النحو ـ أي انعدام الشرطية ـ من ذلك قوله تعالى : ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾[١٩] ، فالدَّين ليس قطعي الوقوع ؛ لذا يلزم الشرط هنا .

لا يخفى على الناظر أن في النص محذوفاً هو (المفروغ منه) والحذف من الأساليب التي تمنح النص تكثيفاً واختزالاً ، وفي الوقت نفسه تفتح آفاق النص على دلالات كثيرة، فالنص مع الحذف يكون مفتوحاً دلالياً ، وما الفراغ في التركيب إلا فراغ ظاهر فحسب ، ذلك بأن الذكر يجعل النص قطعي الدلالة ، أما الحذف فيحيله على الدلالة الظنية فاسحاً المجال لذهن المتلقي لتصوّر جملة

توقعات واحتمالات تملأ الفراغ المتروك،ومن هنا يعمل الذكر على إبعاد ذهن المتلقي عن جميع الاحتمالات ويوجهه إلى المعنى المذكور تحديداً ، أمّا الحذف فيزجّ ذهن المتلقي بجميع الاحتمالات والتداعيات الممكنة ، وهذا ما دفع عبد القاهر للقول عن الحذف بأنه ((باب دقيق المسلك ،لطيف المأخذ ،عجيب الأمر شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة . وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن وهذه جملة قد تنكرها حتى تخبر ، وتدفعها حتى تنظر))[٢٠] فقد يكون الحذف أبلغ من الذكر وأنسق للمقام .

بيد أن هذا الحذف أفضى إلى اختلاف وجهات المفسرين في تحديد المحذوف في هذه الآية ، فنقل عن ابن عباس أنه قال : إذا فرغت من فرضك فانصب إلى ما رغَّبك اللهُ فيه من العمل . وقال قتادة : إن معناه فإذا فرغت من صلاتك فانصب إلى ربك ، وهنا يكون الخطاب موجهاً إلى جميع المكلفين من أمته وإن كان موجهاً للرسول ﷺ[٢١] . وعلى القول الثاني يخرج النص مخرج العموم وان كان خصوصي التوجيه فيشمل العام بلفظ الخاص .

ومنهم من قرأ بكسر الصاد، فقال : فإذا فرغت من حجة الوداع ، فانصب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام إماماً لهم[٢٢] ، على أن حجة الوداع هو العمل الأخير الذي سوف يؤديه في حياته الشريفة فبعدها سيفرغ ﷺ ، فعليك أن تنصب عليا عليه السلام كي يُتِمَّ بعدك حمل الرسالة الذي تولاها معك منذ البدء .

وعند إنعام النظر نجد في تركيب الآية الأخيرة ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الانشراح/٨) تقديماً للجار والمجرور ، وقد جاء هذا لتوجيه العناية والاهتمام من جهة الرغبة وانتهائها ، وفي الوقت نفسه اختصاص المرغوب إليه ، ومن الواضح أن استعمال حرف المعنى (إلى) قد جُنيت به أكثر من دلالة منها : إنه قيد دلالة الفعل (رغب) موضحاً المراد منه ، فهو فعل لازم يتعدى بحرف الجر

الذي يحدد دلالته ، فتقول (رغب عن) إذا أردت ترك الشيء وهجره ،ومنه قوله تعالى : ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾(٢٣) ، فـ (عن) يفيد المجاوزة ، إذ تجاوز إبراهيم عليه السلام برغبته عن آلهتهم فمال عنها إلى الله الواحد الأحد . وتقول (رَغبَ بالشيء) إذا أراده و آثره ، قال تعالى : ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾(٥) ، أي يُعزّون أنفسهم ويؤثرونها عليه ﷺ. أما (رغب إلى) فتدل على غاية الرغبة وانتهائها إلى المرغوب إليه دون غيره؛ لأن حرف المعنى (إلى) يفيد انتهاء الغاية بالرغبة إليه سبحانه وتعالى وقد عزز هذا المعنى بتقديم المتعلق على الفعل ، وليس في هذا الموضع فحسب ، بل نجده في التعبير القرآني يقدم المتعلق في كل مواضع اقترانه بحرف المعنى(إلى)، كقوله تعالى : ﴿إِنَّا إِلَى رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾(٢٥) ، وكذلك قوله ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾(٦) وقوله في هذه الآية : ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ دليل على أن الإنسان ينبغي أن لا يتوجه إلا إلى الله ؛ ذلك بأن الله هو وحده من يثيب الإثابة المطلقة ، وعطاؤه هو العطاء المطلق،فلو جاء التركيب على شاكلة (ارغب إلى ربك) لأمكن أن يعطف عليه بقولنا (و إلى غيره) ، فتجوز الرغبة إلى غيره فضلاً عنه تعالى ، وهذا ما لا يريده الله تعالى وما لا يقتضيه منطق الحكمة باعتبار أن الله تعالى هو خالق الإنسان ومنشؤه ومربيه ، فلا يسعه بمكان أن يلجأ إلى غيره أو يميل إلى سواه ، فالرغبة يجب أن تكون له وحده لأنه وحده الجدير بها ، و في الآية ما يقوي هذا و هو استبدال لفظ الجلالة (الله) بكلمة (ربك) ذلك لما في الأخيرة من إيحاء دلالي بالتعهد والاحتفاء واستمرارية الغاية ما ليس في كلمة (الله) التي تدل على الذات المطلقة ،على أنه أراد في هذا الموطن التنصيص على صفة معينة من صفاته تعالى لتتفق والدلالة الكلية للآية ، علاوة على هذا نشهد أن التصاق كاف الخطاب بكلمة (رَبِّ) مما يزيد التقريب والتخصيص له ﷺ بصورة مباشرة حتى لا يبقى في

نفسه حيزاً للتردد ولو للحظة واحدة في أن الله تعالى سنده .

الملخص :ـ

ينحى هذا المسعى العلمي لاتخاذ النزعة التحليلية للخطاب وسيلة لاستظهار المكامن الدلالية المضمنة في حروف المعاني وذلك تحديداً في سورة الانشراح؛ إذ تنطلق الباحثة من توظيف مقررات الفكر النحوي وأسس الإبداع البلاغي ونتاجات البيان التفسيري ومعطيات المعنى المعجمي وكل ما يسهم في تحقيق بيان دلالة الحرف من قرينة سياقية أو لمحة عقلية تستند الى منطق لغوي ثابت من أجل قراءة تلك الحروف في سورة الانشراح قراءة تفصيلية واعية، علّ ذلك يمكنها من الوقوف على جملة من الدلالات الإعجازية لها لتتسنى الإجابة عن كثير من التأملات والتساؤلات تجاه هذه السورة المباركة.

الخاتمة :ـ

ومن هذا نخلص إلى أن الاستعمال الدقيق لحروف المعاني التي وردت في سورة الانشراح أدى إلى ترشّح عدد من الانزياحات الدلالية التي تضافرت وعضد بعضها بعضا في توجيه دلالة الآيات اتساقاً وتوائماً مع الدلالة العامة للسورة بأسرها ، وهي مواساة الرسول ﷺ ومؤازرته فجاء توظيف تلك الانزياحات بحيثية أوجدت عدة سمات رئيسة هيمنت على السياق العام للسورة وأدت إلى إعادة تشكيل هيكلية النص بالشكل الآتي:

١- أدى اقتران أداة الاستفهام (الهمزة) بأداة النفي (لم) إلى الانحراف بالأسلوب الإنشائي دلالياً إلى أسلوب خبري مانحاً السياق سمة التقريرية (الإثبات) لتوجيه الدلالة العامة للسياق بقوة أكبر ،ذلك بأن تسييق الحدث بوساطة الإنشاء أقوى دلالياً من التعبير الخبري المباشر.

٢- أدى الاستعمال الدقيق لحروف المعاني إلى إضفاء سمة التأكيد التي هيمنت على النص برمته لتقوية السياق ، وقد تحقق ذلك بحيثيات متعددة منها تصدر حرف المعنى التركيب في الآية ليمنح النص ركيزة افتتاحية قوية الدلالة، وأحياناً باستعمال أداة التوكيد وتسليطها مباشرة وبدقة على ما يحقق المضامين المتوخاة دلالياً ، أو تكرار الجملة.

٣- إن الاستعمال الانتقائي لحروف معانٍ دون غيرها مما يقاربها دلاليا أسهم في إضفاء تشكلات أسلوبية غاية في الإعجاز من ذلك :

أ - أدى ورود (لم) دون (ما) إلى الانحراف دلالياً بزمنية السياق من جهة إلى الماضي ، وتحقق تقرير الحدث على سبيل التجدد والاستمرار بدخولها على المضارع من جهة أخرى ؛ وبهذا تكون صفة الشرح صفة دائمة لصدر الرسول ﷺ.

ب - استعمال الفاء دون غيرها من أدوات التعليل أوجب ضم المصاحبة للتعليل للدلالة على أن العسر يكاد يكون مزامنا لليسر.

جـ - حقق وجود (إذا) الشرطية انحرافا دلالياً في الفعل من جهة الزمن ، فضلا عن أن دلالة (إذا) في هذا السياق دون (إنْ) ناسبت المعنى المراد بدقة من الآية ؛ لمنح السياق دلالة القطعية ، على حين أن (إنْ) تأتي للتعبير عن أمر ظني الوقوع .

٤- إن وجود حروف المعاني المتصلة بكاف الخطاب في تراكيب مكتملة من دون وجودها يوجه دلالة الأفعال في التراكيب التي تضمنتها من جهة ، وربطها ربطاً دلالياً منطقياً بالدلالة العامة للآيات من جهة أخرى .

٥- ومثلما لوجود حرف المعنى في تركيب تام من دونه دلالة فان لحذفه من تركيب يقتضيه دلالات وهذا ما وجدناه في الآيتين الأخيرتين ،

فالحذف يحيل النص على الدلالة الظنية ليتأتى للذهن تصور كل ما من شأنه أن يملأ الفراغ المتروك من جهة ،ويضفي على النص بعداً جمالياً من جهة أخرى.

Abstract

This scientific approach tends to adopt the analytical tendency of the discourse as a tool to reveal the semantic connotations of the meaning particles, especially in Alinshirah Sura.

The researcher initiated the attempt with the employment of the terms of grammatical thought and the rhetoric creation basis, the interpretational eloquence products the data of lexical meaning and all what participates in achieving the meaning of the particle of synonyms or intellectual insight that is based on a constant linguistic logic to be able to read those particles included in the Sura in a detailed way to make finding the semantic features in a sentence possible so as to give answers to many inquiries and meditations of that Sura.

هوامش البحث

(١) الطوسي: التبيان : ٣٧١/١٠
(٢) المخزومي (مهدي): النحو العربي نقد وتوجيه : ٢٦٤
(٣) السامرائي فاضل صالح: معاني النحو:٤/ ٦٠٨
(٤) الجندي درويش: علم المعاني :٢٥
(٥) السامرائي: معاني النحو : ٢/ ٥٧٤
(٦) سيبويه : الكتاب :١/ ٤٦٠
(٧) السامرائي :معاني النحو ٤/ ٥٧١
(٨) الزمر/ ٣٢
(٩) الإنعام/١٢٥
(١٠) ينظر: سيبويه:الكتاب ٢/ ٣٠٤
(١١) الأعراف /١٥٧
(١٢) الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز:١٣٢

(١٣) المصدر نفسه :١٣٣
(١٤) سيبويه :الكتاب:٢ /٣٠٤
(١٥) ابن منظور:لسان العرب :مادة (مع)
(١٦) المبرد :المقتضب :١/ ١٠
(١٧) ابن جني: الخصائص: ١٠٥/٣
(١٨) القزويني: الإيضاح:٨٨/١- ٨٩
(١٩) البقرة/ ٢٨٢
(٢٠) الجرجاني عبد القاهر : دلائل الإعجاز :٩٥-٩٦
(٢١) ينظر: الطوسي :التبيان : ٣٧٣/١ والطبرسي :مجمع البيان ٥٠٧/٥
(٢٢) ينظر :البحراني السيد هاشم الحسيني : البرهان : ٤٧٤/٥
(٢٣) مريم /٤٦
(٢٤) التوبة /١٢٠
(٢٥) القلم / ٣٢
(٢٦) التوبة / ٥٩

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- البحراني السيد هاشم الحسيني (ت ١١٠٧هـ): البرهان في تفسير القرآن ، طهران، مؤسسة البعثة، ط١ ،١٤١٥هـ.

٣- الجرجاني عبد القاهر(ت ٤٧١هـ): دلائل الإعجاز في علم المعاني،صححه الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود التركزي ، مكتبة القاهرة ١٣٨١هـ - ١٩٦١م .

٤- الجندي درويش: علم المعاني ،

٥- ابن جني أبو الفتح عثمان (٣٩٢هـ) : الخصائص ، تحـ :محمد علي النجار ، مط دار الكتب المصرية ، القاهرة، ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

٦- السامرائي : د. فاضل صالح:

- معاني النحو (ج ٢)،مط التعليم العالي في الموصل ١٩٨٩م .

- معاني النحو (ج٤)، دار الحكمة للطباعة والنشر ـ الموصل ١٩٩١م .

٧- سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ) : الكتاب ، طبعة بولاق نشر مكتبة المثنى ببغداد.

٨- الطبرسي أمين الدين أبو علي الفضل بن الحسن (ت٥٤٨هـ) : مجمع البيان في تفسير القرآن ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي، ١٣٧٩هـ.

٩- الطوسي أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (ت٤٦٠ هـ) :التبيان في تفسير القرآن ، تحـ : احمد حبيب قصير العاملي ، قم، مكتب الإعلام الإسلامي، ط١ ، ١٤٠٩هـ.

١٠- القزويني جلال الدين محمد بن عبد الرحمن (ت٧٣٩هـ): الإيضاح في علوم البلاغة مط ، إحياء العلوم ، بيروت ـ لبنان ،ط٤ ،١٩٩٨م .

١١- المبرد أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥هـ) المقتضب، تحـ : محمد عبد الخالق عظيمة ،لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة ، ١٣٨٥هـ.

١٢- المخزومي :د. مهدي : في النحو العربي نقد وتوجيه ،مط دار الرائد العربي ،بيروت ـ لبنان ، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

١٣- ابن منظور أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، لسان العرب مط دار صادر، بيروت ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .